المحاضرة الرابعة

خط الثلث

- يعتبر خط الثلث من أشهر الخطوط العربية التي شاعت في أنحاء العالم الإسلامي، وإن اختلف الكتاب حول طبيعة وهيئة حروفه بالنسبة للتقوير والبسط، أو على أن مساحته ثلث مساحة خط الطومار .
- وخط الثلث يعد من أصعب أنواع الخطوط عند الكتابة به، إلا أنه أكثرها جمالاً، ويمتاز بالمرونة ومتانة التركيب وبراعة التأليف بين كلماته، وحسن توزيع الحليات الخطية ويبدو ذلك في طريقة التشكيل والتجميل والتركيب الذي يبدو خفيفاً أحياناً، ومعقداً أحياناً أخرى .

- والواقع أن خط الثلث لم يحظ بدرجة كبيرة من الانتشار عند بداية ظهوره، ولكن عندما وضعت قواعده ونسبه الثابتة؛ ازدهر وشاع استخدامه على العمائر والفنون التطبيقية الإسلامية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي اعتباراً من القرن السادس الهجري-الثاني عشر الميلادي.
- وقد مر خط الثلث منذ نشأته كفن زخرفي كتابي بطبيعة الحال بمراحل من التطور أهلته لأن يكون فناً جميلاً راقياً، حقق أغراضه الزخرفية والوظيفية من تسجيل لإنشاء أثر أو تعميره أو تجديده، أو تسجيل لوفاة، أو لكتابة نص تذكاري على تحفة فنية، إلى غير ذلك من الأغراض التي استخدمت من أجلها الكتابات التذكارية .

- وقد وصف هذا الخط بأنه أصل الخطوط العربية ورأسها وأبهاها وأجملها وأصعبها، ومن يتمكن من كتابة خط الثلث يتمكن من كتابة سواه، ومع تعدد أشكال وأنواع الخطوط العربية فإن خط الثلث يبقى في قمة هذه الأنواع، ومنه تفرعت خطوط عديدة، وعليه أقيمت قوانين الخط وقواعده، وأصبح كل تجاوز أو تحوير لهذه القواعد ينتج عنه نمط جديد، إلا أن الخطوط جميعها تدخل ضمن نظام واحد يعتمد على التناسب والانسجام والتوافق وهي عناصر الجمال في الطبيعة، ويقول عنه الصيداوي في منظومته:
- من أدمن الثلث على الدوام أعانه في سائر الأقلام

- يذكر يوسف ذنون في مقاله عن:"خط الثلث ومراجع الفن الإسلامي":"وقد اعتاد الباحثون على استعمال مصطلحات خطية تفتقر إلى الدقة في تحديد المعنى المقصود، وتدعو إلى الالتباس، وأمامنا مثل صارخ هو خط الثلث الذي تطلق عليه مراجع الفن الإسلامي"خط النسخ"، حتى المراجع المتخصصة منها في تاريخ الخط !!، وكلاهما من الخطوط المعروفة التي لها قواعد محددة والمختلفة في الوقت نفسه.
- ويكاد يكون وجود خط النسخ هذا معدوماً على الآثار، لأن وظيفته الأساسية لغوية، ولهذا نجده قد اقتصر على المخطوطات بصورة عامة، والمصاحف منذ القرن (7هـ/ 13م) بصورة خاصة

- **وفي المقابل فإن الخط التزييني الرئيسي الذي استخدم في الزخرفة الكتابية منذ القرن(3هـ/ 9م) وحتى الوقت الحاضر هو"خط الثلث"، وبأشكاله التي ظهرت واضحة في النصف الأول من القرن (4هـ/ 10م)، واستمرت قروناً عديدة لم يطرأ عليها إلا تطوراً محدوداً، لم يتضح إلا في الفترات المتأخرة.**

- حتى بدا نتيجة قسمة رياضية لقلم الجليل في العصر الأموي، ونسب اختراعه إلى قطبة المحرر، المتوفى سنة (154هـ/ 847م) .وهو بذلك نوع من الخطوط الموزونة(أي التي تعتمد على المسطرة والآلة في الكتابة)التي أطلق عليها فيما بعد"الخط الكوفي"، بعدها شهد نقلة أخرى لم تتضح معالمها فيما لدينا من المصادر، ولكن هناك إشارات تدل على أن تغييراً مزدوجاً طرأ على هذا المصطلح خرج به من الخطوط الموزونة إلى الخطوط المنسوبة، بدأ بنسبة اختراعه ثانية إلى إبراهيم الشجري المتوفى سنة(200هـ/ 815م)، ليتطور في عصر المأمون العباسي(198-218هـ)/(813-823م)على يد الأحول ويوسف لقوة المتوفى سنة (210هـ/ 825م)، ومن خلال الخط الرئاسي، ليصل إلى المحرر إسحق بن إبراهيم في نهاية القرن (3هـ/ 9م)، ومنه إلى ابنا مقلة اللذين ينسب إليهما وضع الضوابط الأولية للخط المنسوب، وظهرت خصائصه على النقود في سنة (292هـ/ 904م)، وسنة (305هـ/ 917م)، وما أن حل القرن (6هـ/ 12م)، حتى سيطر على الآثار الإسلامية؛ واحتل مكان الصدارة في الزخرفة الكتابية، واستمر حتى الوقت الحاضر .

- يعود تاريخ ظهور الخط اللين إلى أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس على يد قطبة المحررالذي أطلق عليه أكتب الناس على الأرض بالعربية في زمانه، وتوفي سنة (154هـ/770م)، بحيث يمثل ما ابتكره مرحلة من المراحل الكبرى في تاريخ فن الخط العربي، حيث أنه يعتبر من أول من كتب الخط الموزون، وهو الذي استخرج الأقلام الأربعة(الجليل والطومار والثلث والثلثين)، واشتق بعضها من بعض، بحيث كانت صفة هذه الأقلام ثقيلة موزونة لا يقوى عليها أحد إلا بالتعليم والمران الشديد، ويأتي على رأسها قلم الجليل، الذي كان يكتب به عن الخلفاء إلى ملوك الأرض في الطوامير، وكان قلم الطومار من مشتقات قلم الجليل، وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم .

- وعلي الرغم من أن الخط اللين كان معروفاً منذ القرن (2هـ/ 8م)، إلا أن تسمية الخط الكوفي غلبت عليه .
- وقد انتهت جودة الخط في الدولة العباسية(132-656هـ)/(750-1258م) إلى رجلين من أهل الشام، هما:الضحاك بن عجلان، وإسحاق بن حماد، وكان الضحاك في خلافة السفاح (أول خلفاء بني العباس)، وكان إسحاق في خلافة المنصور العباسي (136-158هـ) / (754-775م) والمهدي (158-166هـ)/(775-785م)، وكانا يخطان الجليل والطومار، وفي عهدهما بلغ عدد الأقلام العربية اثنى عشر قلماً، لكل قلم منها شكل خاص به .
- ثم أخذ عن إسحاق بن حماد الخطاط إبراهيم الشجري أو السجزي (السجزي نسبة إلى سجستان على غير قياس) (ت 200هـ/ 815م) الخط الجليل؛ فاخترع منه قلماً أخف اسمه الثلثين-وكان أخط أهل دهره بالثلثين-ثم قلماً أخف اسمه الثلث، واخترع أخوه يوسف الشجري خطاً آخر سمي بالرياسي(صورة من صور خط الثلث) نسبة إلى ذي الرياستين(الفضل بن سهل بن هارون)وزير الخليفة المأمون العباسي، الذي أعجب بخط الثلث؛ وأمر أن تحرر الكتابة السلطانية به دون غيره .

- ولقد تبع الخطاط إبراهيم الشجري جيل من الخطاطين الذين وضعوا القواعد الثابتة لهذا الخط في نسب حروفه وهيئاتها وأشكالها بدقة بالغة .
- يذكر القلقشندي:"قال النحاس:ثم أخذ عن إبراهيم السجزي الأحول الثلثين والثلث، واخترع منهما قلماً سماه قلم النصف، وقلماً أخف من الثلث سماه خفيف الثلث، وقلماً متصل الحروف ليس في حروفه شئ ينفصل عن غيره سماه المسلسل، وقلماً سماه غبار الحلية(الحلبة)، وقلماً سماه خط المؤامرات، وقلماً سماه خط القصص، وقلماً مقصوعاً سماه الحوائجي، قال:وكان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير إحكام ولا إتقان، وكان عجيب البري للقلم".وكل هذه الأقلام مخرجها كلها من أربعة أقلام، هي:الجليل والطومار الكبير وقلم النصف الثقيل وقلم الثلث الكبير والثقيل، وقد سميت هذه الأقلام باسم الأقلام الموزونة الأصلية التي لا يقوى عليها أحد إلا بالتعليم الشديد.

- ثم زاد الخط بهاءً على يد وزير الدولة أبو علي محمد بن مقلة في العراق(272-328هـ) / (885-939م)، وهو الذي أتم ما بدأه قطبة من التحويل من صورة الخط الكوفي اليابس، إلى الأشكال اللينة من الخط العربي، وقد تفرد بالدرج، وأخوه عبد الله تفرد بالنسخ .
- ويذكر ابن خلكان:"وكان أخوه أبو عبد الله الحسن بن علي بن مقلة كاتباً أديباً بارعاً، والصحيح أنه صاحب الخط المليح، ومولده يوم الأربعاء طلوع الفجر سلخ شهر رمضان سنة ثمان وسبعين ومائتين، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة".
- كما يذكر القلقشندي:"ثم انتهت جودة الخط وتحريره على رأس الثلثمائة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة وأخيه أبي عبد الله، قال صاحب"إعانة المنشئ":وولدا طريقة اخترعاها، وكتب في زمانهما جماعة فلم يقاربوهما، وتفرد أبو عبد الله بالنسخ، والوزير أبو علي بالدرج وكان الكمال في ذلك للوزير، وهو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها، وعنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها، ولله قول القائل:
- سبق الدمع في المسير المطايا إذ روى من أحب عنه بقلة
- وأجاد السطور في صفحة الخد ولم لا يجيد وهو ابن مقلة
- وقول الآخر:
- تسلسل دمعي فوق خدي أسطراً ولا عجب من ذاك وهو ابن مقلة

- وبذلك انتهت إلى ابن مقلة جودة الخط وحسن تحريره، حيث وضع القواعد الخطية من أجل تطوير الخط العربي وقياس أوضاعه وأبعاده، وبذلك يعتبر المؤسس الأول لقاعدتي الثلث والنسخ، وعلى طريقته سار الخطاطون من بعده، حيث وضع مقاييس الخط ومعاييره التي يضبط بها، بحيث إن زاد عنها أو قصر ظهرت عيوب الخط واضحة، وبرزت عيوبه الكتابية والفنية .
- ولقد أطلق على هذا الخط اسم"الخط المنسوب"، وذلك لتناسب حروفه وجمال أشكالها، وتناسبها بشكل هندسي متقن مجود مع بعضها البعض، وعلى هذا الأساس وضع ابن مقلة قانونه الذي يضبط به أصول الخط، وبين ذلك في رسالة وضح فيها وجوه تجويد الكتابة بحسن التشكيل وحسن الوضع، ولهذا فإن ابن مقلة يعتبر من أول من هندس الحروف وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط .

- وقال الوزير ابن مقلة في رسالته التي وضح فيها وجوه تجويد الكتابة بحسن التشكيل وحسن الوضع:تحتاج الحروف في تصحيح أشكالها إلى خمسة أشياء هي:
- -التوفية:ومعناها أن يأتي كل حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يركب منها(مقوس ومنحني ومسطح) .
- -الإتمام:ومعناه أن يعطى كل حرف قسمته من الأقدار التي يجب أن يكون عليها من طول أو قصر أو دقة أو غلظ .
- -الإكمال:ومعناه أن يؤتى كل خط حظه من الهيئات التي ينبغي أن يكون عليها من انتصاب وتسطيح وانكباب واستلقاء وتقويس .
- -الإشباع:ومعناه أن يؤتى كل خط حظه من صدر القلم التي يتساوى به، فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ولا أغلظ فيما يجب أن يكون في بعض أجزاء الحروف من الدقة .
- -الإرسال:ومعناه أن يرسل الخطاط يده بالقلم في كل شكل يجري بسرعة من غير احتباس ولا توقف.

- وأما حسن الوضع فيحتاج إلى تحسين وتصحيح أربعة أشياء هي :
- -الترصيف:ومعناه أن يتصل كل حرف بالحرف الآخر المجاور له، والذي يقبل الاتصال.
- -التأليف:ومعناه جمع كل حرف غير متصل إلى غيره .
- -التسطير:ومعناه إضافة الكلمة إلى الكلمة بحيث يصير سطراً منتظماً .
- -التنصيل:ومعناه مواقع المدات المستحسنة من الحروف المتصلة، وهذه المدات تستعمل لأمرين هما :
- 1-تحسين الخط وتفخيمه .
- 2-أن المدة ربما وقعت ليتم السطر إذا بقي منه ما لا يتسع لحرف آخر، ويجب على الكاتب أن يعرف مواضع المد وأحكامها، حتى لا يضعها في غير المواضع اللائقة بها، فيشتبه الحرف بغيره ويفسد المعنى، كما يجب على الكاتب معرفة الحروف التي تقبل المد والحروف التي لا يمكن إضافة المد إليها، كالكاف واللام والميم.

- وقد ظل الخط العربي أيام العباسيين ببغداد يرتقي بارتقاء الدولة ويتنوع حتى صارت أنواعه أكثر من عشرين نوعاً، مما جعل الوزير ابن مقلة يحصر هذه الأنواع ويستخلص منها أنواعاً ستة، هي:الثلث والنسخ والتوقيع والريحان والمحقق والرقاع .
- وقد أخذ عن ابن مقلة الخطاط محمد السمسماني، ومحمد بن أسد يذكر ابن خلكان:"كان شيخ ابن البواب في الكتابة ابن أسد الكاتب المشهور، وهو أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي بن سعيد القارئ الكاتب البزاز البغدادي، مات محمد بن أسد في يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة عشر وأربعمائة، ودفن بالشونيزى" .

- وإذا كانت بغداد في العصر العباسي تمثل المركز الرئيسي في فن كتابة الخط العربي، فإنه وبلا شك أنه كانت توجد مراكز أخرى لتجويد الخط العربي، ومن أهمها مصر، والتي كان بها في تلك الفترة المعاصرة للدولة العباسية ببغداد كاتب ومحرر في بلاط ابن طولون-لم يكن لأمير المؤمنين ببغداد مثلهما- هما:طبطب المحرر(ت 270هـ/ 883م)، ومحمد بن عبد كان كاتب الإنشاء الشهير للدولة الطولونية، وكان بليغاً مسترسلاً وفصيحاً؛ يذكر القلقشندي:"انتهت رياسة الخط بمصر إلى طبطب المحرر جودة وإحكاماً، قال النحاس:وكان أهل مدينة السلام يحسدون أهل مصر على طبطب وابن عبد كان، يعني كاتب الإنشاء لابن طولون، ويقولون:بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما" .

- ثم ظهر أبو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب، لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه، وإن كان أبو علي بن مقلة من أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة، وله بذلك فضيلة السبق، وخطه أيضاً في نهاية الحسن، لكن ابن البواب هذب طريقته ونقحها وكساها طلاوة وبهجة، وهو الذي أكمل قواعد الخط، وقيل إن صاحب الخط المنسوب المشهور ليس أبا علي المذكور، وإنما هو أخوه أبو عبد الله الحسن، والكل معترفون لأبي حسن بالتفرد، وعلى منواله ينسجون، وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعي ذلك، ويقال له "ابن الستري"أيضاً؛ لأن أباه كان بواباً، والبواب ملازم ستر الباب، فلهذا نسب إليه، وتوفي ابن البواب يوم الخميس ثاني جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وقيل ثلاث عشرة وأربعمائة ببغداد، ودفن بجوار الإمام أحمد بن حنبل"رضي الله عنه" وكان قد أخذ عن الخطاط محمد السمسماني .

- وقد أكمل ابن البواب وتمم قلم التوقيعات والنسخ، وهما اللذان أتقنهما قبله ابن مقلة، كما أحكم خط النسخ الذي كان يكتبه شيخه ابن أسد بصورة قريبة من خط المحقق كما أتقن الكتابة بقلم الذهب أي الكتابة بالتذهيب، كما أبدع في كتابة قلم الرقاع وقلم الريحان، وأضاف بعض التطوير لقلم الحواشي، ثم برع ابن البواب في خط الثلث .وقد قدم ابن البواب في نطاق قلم خط الثلث عدة أقلام، هي:الثلث المعتاد-المنثور-المقترن-التواقيع-جليل الثلث-المصاحف-المسلسل-الغبار-النسخ الفضاح-جليل المحقق-الريحان-الرقاع-الرياشي(الرياسي)-الحواشي-الطومار .

- ولما جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر (358-567هـ)/(969-1171م) تقدم الخط العربي تقدماً عظيماً، ونافست الدولة الفاطمية في مصر دولة العباسيين في العراق في تجويد الخط، وكان للخط معلمون ومدارس فنية عامرة في كل مكان، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدولة الفاطمية كانت دولة ترف وزينة وزخرف وتجميل؛ فحلوا بالكتابة قصورهم وأثاثهم وتحفهم.وفي نهاية العصر الفاطمي(في النصف الأول من القرن 6هـ/ 12م)كان الخط المدور(الثلث)قد بدأ في الانتشار على العمائر والتحف التطبيقية الإسلامية، حيث أدخل على الخط العربي كثيراً من التجويد والإبداع منذ أواخر القرن (5هـ/ 11م) في شمال الشام على يد الأتابكة الذين جودوا خط النسخ، وهو الخط اللين المائل إلى التدوير كما طوروا نوعاً آخر اتسم بالجمال والبهجة، وعرف في مصطلح الخطوط العربية باسم خط الثلث، ومنذ ذلك الوقت مالت الخطوط كلها إلى الاستدارة، وفي جملتها الخط التذكاري الذي كان ينقش به على الأحجار والأخشاب، وشكل في الجص، وطرق على صفائح النحاس، وأصبحت الكتابات التي كانت تكتب من قبل على المواد الصلبة بالخط الكوفي الجاف تنقش بحروف تميل إلى الاستدارة، وما لبثت الكتابات التذكارية منذ ذلك الحين تدون بالخط المستدير، وما إن حل القرن (6هـ/ 12م) حتى قل استخدام الكتابة الكوفية وقل شأنها في كتابات المصاحف والنقش على الأحجار والأخشاب، وحل محلها خط الثلث على جدران العمائر، واستعمله المعمار في تزيين كثير من المواضع في الأبنية، فنجده على عضادتي المدخل، وبأعلى الواجهات الرئيسية، وبأعلى الواجهات المطلة على الصحن، وحول رقاب القباب من الداخل والخارج وبقطبها الداخلي، وحول أبدان المآذن، وما يعلو الأبواب والمحاريب وجدران المنشآت المختلفة، وما وجد على شواهد وتراكيب القبور الإسلامية

- وقد حفرت هذه الخطوط داخل أفاريز غائرة أو بارزة عن مستوى الجدران والحوائط، بحيث تفصل بين أجزاء النص الواحد فيها فواصل زخرفية متنوعة، منها ما هو على شكل جامات مستديرة أو مفصصة زين داخلها بزخارف نباتية وهندسية رائعة، أو عبارة عن فواصل مستطيلة مدببة الحواف، وقد امتاز هذا الخط بالليونة في أشكال حروفه، مما يدل على حدوث نضج فني كبير خاصة وأن المادة الحجرية الصلبة تتحكم في شكل وجودة الخط المنفذ عليها .

- ثم ظهر ياقوت المستعصمي في سماء فن الخط العربي في القرن السابع الهجري-الثالث عشر الميلادي، وهو الشيخ جمال الدين ياقوت المستعصمي بن عبد الله الرومي الطواشي البغدادي الأماسي(من أماسية)، صاحب الخط البديع، الذي شاع ذكره شرقاً وغرباً، والذي يمثل الحلقة الثالثة الرئيسية في المسار التطوري لفن الخط العربي بعد ابن مقلة وابن البواب، والذي عرف بالخط المنسوب، وأصله رومي، كان من مماليك المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد (640-656هـ)/ (1242-1258م)، فانتسب إليه واشتهر بتلك النسبة، وذكر أنه لقب بجمال الدين نظراً لجمال خطه، وتوفي سنة (698هـ/ 1298م).وقد تهيأت لمدرسة ياقوت فرصة أوسع للانتشار السريع في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي خارج بغداد، وعلى الأخص المنطقة الشرقية والمقصود بها فارس وبلاد الأناضول، واللتين كانتا تعرفا قديماً باسم بلاد الروم وبلاد العجم، وكذلك بلاد ما وراء النهر .